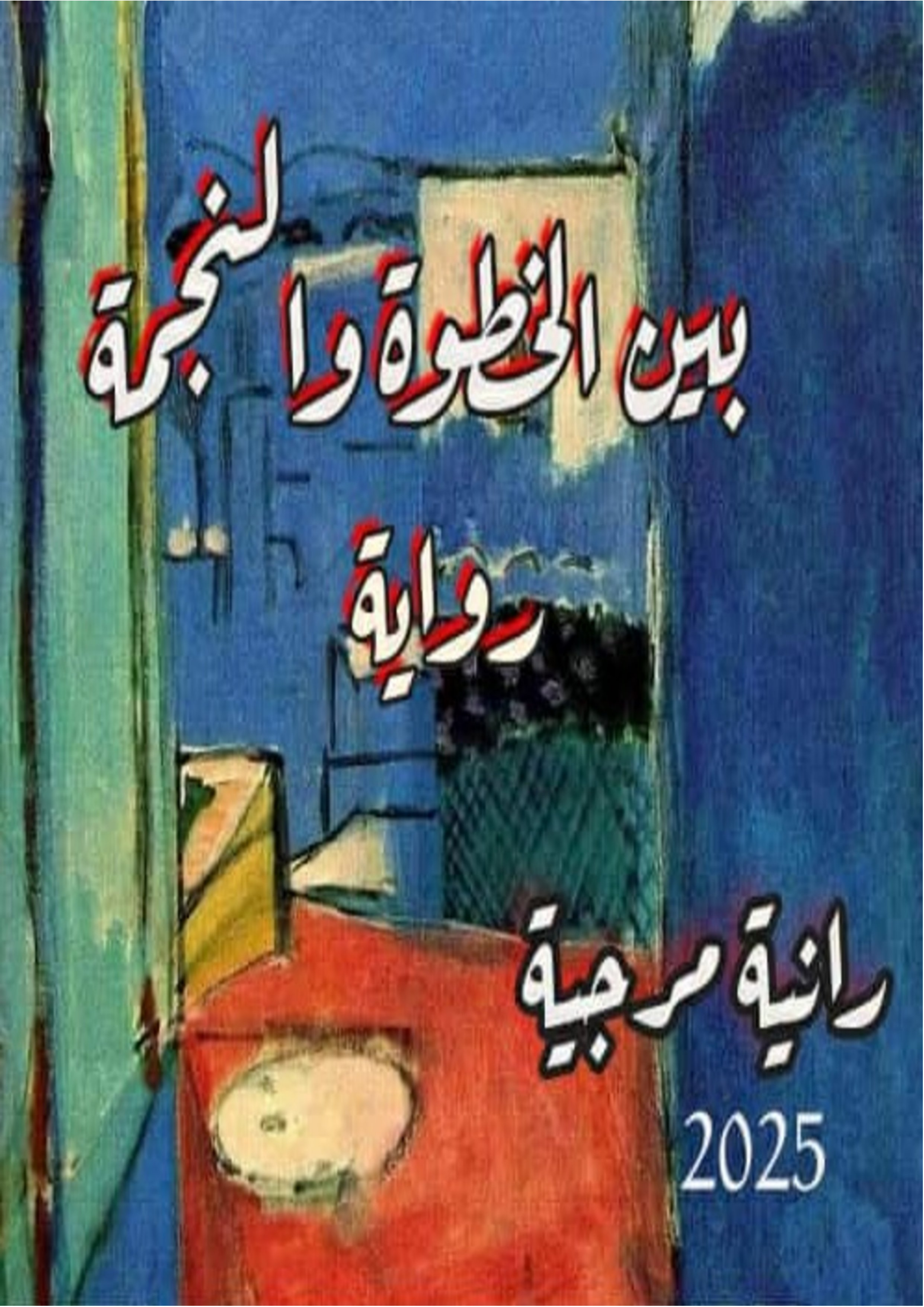

بين الخطوة والنجمة

رواية

رانية مرجية

2025

بين الخطوة والنجمة

رواية قصيرة

رانية مرجية

٢٠٢٥

الإهداء

إلى كل من فقد شيئًا أو شخصًا، وظن أن الفقد نهاية الطريق...

إلى أولئك الذين مشوا في العتمة حتى لاح لهم نور بعيد...

إلى القلوب التي تؤمن أن الوصل لا يولد من الوحدة، بل من الآخر.

هذه الرواية لكم، لأنكم أنتم النجوم الحقيقية.

المقدمة

"بين الخطوة والنجمة" ليست مجرد حكاية عن شخصيات تبحث عن معنى الفقد والوصل، بل هي رحلة داخل الإنسان نفسه.

رحلة تبدأ بخطوة في عالم مألوف، ثم تمضي نحو فضاءات غير متوقعة، حيث يتبدّل الألم إلى ضوء، والغياب إلى حضور، والوحدة إلى شبكة من الأرواح المتصلة.

هذه الرواية كُتبت على وقع الأسئلة:

– ماذا يبقى منا حين نفقد أعزّ ما نملك؟

– وهل يمكن للحزن أن يتحوّل إلى موسيقى، أو لكلمة أن تصبح نجمة، أو لفقدٍ أن يفتح طريقًا؟

قد لا تكون الإجابة واحدة، لكن الرحلة نفسها هي الجواب.

فما بين الخطوة والنجمة... يولد الأبد.

الفصل الأول: السطح

كان آدم يقف على سطح البناية كمن يتهيّأ للرحيل، لا يدري أهو رحيلٌ إلى الأسفل أم إلى الأعلى.

المدينة تحته تلمع بأضوائها الباردة، مثل لوحة مرسومة على زجاج متصدّع، وفوقه تتناثر النجوم كفتات حلمٍ بعيد.

آدم، ابن الأزقّة الضيقة والميناء المزدحم، لم يجد لنفسه مكانًا في شوارع المدينة سوى هذا السطح. يعمل نهارًا في متجر صغير، ويقضي الليل بين صمته وأحلامه، مطاردًا من فكرة واحدة لا تفارقه: الباب.

بابٌ يتكرر في رؤاه، يلوح في الظلام ثم يختفي، تاركًا في صدره ثِقلًا من الأسئلة. أهو خلاص؟ أم هاوية جديدة خلف خشبه العتيق؟

مدّ يده إلى الفراغ كما لو كان سيلمس مقبضًا غير مرئي، شعر بالهواء يبرد على جلده. تردّد.

بين السماء والأرض، هناك مسافة معلّقة لا يملك أحد أن يقطعها. هو نفسه صار معلّقًا: لا من أهل الأرض ولا من أهل السماء.

فكّر:

– ربما الخطوة الأولى ليست على البلاط ولا على السلالم، بل في الداخل... خطوة في القلب قبل أن تُقاس بالقدم.

عندها لمح نجمة وحيدة أشدّ بريقًا من سائر النجوم، تومض كأنها تراقبه وحده. ابتسم لأول مرة منذ شهور، كأنها دعوة سرّية.

همس لنفسه:

– بين الخطوة والنجمة... هناك باب ينتظر.

لكن في الأسفل، كان البحر يعلو هديره كما لو أنه يطالب بحصّته من الأرواح، وكانت صفّارات بعيدة تقطع ليل المدينة. شعر آدم أن الوقت يضيق، وأن الباب الذي يراه في أحلامه ليس صبرًا طويلًا... بل موعدًا يقترب.

الفصل الثاني: ليلى

كانت ليلى تمشي في الشوارع كما لو أنها غريبة عن كل شيء، حتى عن خطواتها.

حقيبة صغيرة على كتفها، ودفتر أسود تحمله أينما ذهبت. تقول إن الكلمات وحدها تحفظها من السقوط، وإن القصيدة وطنٌ حين يغلق العالم أبوابه.

ولدت في مدينة بعيدة، نصفها بحر ونصفها حرب، ثم حملتها الرياح إلى هنا، حيث لم تعد اللغة مألوفة ولا الوجوه مألوفة. ومع ذلك، كانت تجلس في المقهى ذاته كل مساء، عند طاولة خشبية متآكلة بجانب النافذة، تحدّق في فنجانها الفارغ كأنها تنتظر أن تنبت منه قصيدة جديدة.

أصوات الزبائن من حولها كانت تختلط برائحة البنّ والبحر، لكن ليلى لم تكن تسمع سوى صمتها.

ليلى لا تضحك كثيرًا. تعلّمت أن الحنين لا يترك مجالًا للضحك.

حين تكتب، تغرس كلماتها مثل مسامير في خشبٍ قديم:

"كيف يكون الوطن؟ بيتٌ أم صدى؟ وجه أم فكرة؟"

في الليل، تسمع البحر من بعيد، وتشعر أنه يهمس لها بما لا تقدر على كتابته.

كانت تعرف أن هناك شيئًا يتشكّل في الأفق، شيئًا أكبر من قصائدها. في أحلامها، لم تكن ترى بابًا كما يراه آدم، بل كانت تسمع طرقًا متواصلًا، كأن أحدًا خلف جدارٍ يطلب النجدة.

رفعت رأسها إلى السماء تلك الليلة، ورأت النجمة نفسها التي لمحها آدم فوق السطح. ترددت لحظة، ثم كتبت في دفترها:

"بين الخطوة والنجمة... هناك كلمة تنتظرني."

التفتت نحو النافذة، فرأت بناية عالية يطل منها ضوء باهت. لم تعرف أن هناك، على سطح تلك البناية، يقف رجل يطارد الباب في أحلامه.

الفصل الثالث: يوسف

كان يوسف يعزف على وترٍ مكسور.

الكمان الذي يحمله معه منذ الطفولة لم يعد كاملًا، لكنه كان يصرّ على إخراج نغمة واحدة، ولو متعثّرة.

يقول إن الوطن قد يُمحى من الخرائط، لكن لا أحد يستطيع أن يمحو الصوت.

هاجر من بلدة صغيرة على الساحل، لم يبقَ منها سوى صور بالأبيض والأسود وملامح أمٍّ تناديه في الحلم. لم يجرؤ أن يعود، ولم يجرؤ أن يقطع الحبل الأخير: الموسيقى.

لذلك صار يفتّش عن الأرصفة المهجورة والساحات الصامتة، ليجعلها مسرحًا لحنينه.

في الميناء، جلس على حافة الرصيف وعزف مقطعًا حزينًا.

كان المارة يمرّون من حوله مسرعين، بعضهم يرمي قطعة نقدية، آخرون يلتفتون بدهشة، وأكثرهم لا يرونه أصلًا.

لكن طفلة صغيرة توقفت أمامه، شدّت ثوب أمها وقالت:

– ماما، اسمعي.

ابتسم يوسف رغم الدموع التي كادت تفضحه. كان يكفيه أن يسمعه قلب واحد.

رفع صوته أكثر، متحديًا الضجيج. شعر للحظة أن البحر نفسه يستجيب لنغماته، يعلو ويهبط كأنه يتنفس معه. وحين توقّف، بدا وكأن المدينة بأكملها سكتت ثانية واحدة، ثم عاد صخبها المعتاد.

في تلك الليلة، نام يوسف على مقعد خشبي في الساحة الكبرى، ورأى في حلمه شيئًا غريبًا:

بابٌ أسود، من خلفه موسيقى لم يسمع مثلها من قبل. لم يجرؤ أن يقترب.

استيقظ مضطربًا، وعزف نفس اللحن الذي سمعه في الحلم، كأنه يريد أن يتأكد أنه لم يكن وهمًا.

وعندما رفع عينيه، لمح من بعيد بناية عالية يعلوها سطح مظلم، ونافذة مقهى مضاءة.

لم يكن يعرف أن هناك، في ذلك الليل نفسه، كانت ليلى تكتب قصيدتها، وكان آدم يلاحق نجمته.

الفصل الرابع: ديفيد

كان ديفيد يجلس وحيدًا في غرفة الطوارئ بعد أن غادر آخر المرضى.

الليل ثقيل، والمصباح المعلّق في السقف يهتزّ مع تيار الكهرباء، يلقي بظلالٍ واهنة على الأسرة المهجورة.

رائحة المطهّرات تختلط ببقع قديمة على الأرضية، كأن المكان يحفظ ذاكرة كل مَن مرّ به.

وُلد ديفيد في هذه المدينة، لكنه لم يعرف يومًا معنى الانتماء الكامل. كان يحمل في داخله ظلّ أبيه، طبيبًا أيضًا، غير أن التاريخ لم يتركه طبيبًا فقط؛ كان شاهدًا على حربٍ قديمة، ومتهمًا بالصمت أمام ما لا يُغتفر.

كبر ديفيد وهو يسمع الحكايات المتناقضة: أبوه منقذٌ في نظر البعض، متواطئٌ في نظر آخرين.

ولم يستطع أن يحدّد لنفسه أي وجه سيرثه.

حين يضع يده على جسد مريض، يشعر أحيانًا أنه يعالج نفسه لا الآخر.

وحين ينجو أحدهم، يسمع داخله همسًا يقول: هذا غفرانٌ صغير، لكن ذنبك أكبر.

في تلك الليلة، دخلت امرأة عجوز إلى الطوارئ، وجهها يشبه تجاعيد مدينة متهالكة.

سألته بصوت مرتجف:

– هل تقدر أن تعيد لي ابني؟

أدرك أنها لا تسأل عن جسد، بل عن زمن مضى.

أخفض رأسه، ولم يجد جوابًا.

شعر بيديه ترتجفان للمرة الأولى منذ سنوات. جلس على الكرسي المتهالك، يحدّق في البلاط الأبيض الملطّخ ببقع قديمة. كان يعرف أن كل بقعة ليست دماء مجهولين فقط... بل تاريخ يطارده.

خرج بعدها إلى الشارع، والليل يثقل على كتفيه.

رفع عينيه إلى السماء، ورأى نجمة وحيدة تلمع.

ابتسم بمرارة وقال:

– أي غفرانٍ هذا، إن كان النجم لا يضيء سوى للغرباء؟

وحين أغمض عينيه لحظة، لمح بابًا أبيض في ذاكرته، يفتح ويغلق بسرعة، كأنه يعرض عليه فرصة ثم يسحبها.

ارتجف قلبه.تساءل: أهو بابٌ للنجاة، أم بابٌ جديد يُضاف إلى ميراث الأب الذي لا ينتهي؟

الفصل الخامس: ماريا

كانت ماريا تمشي في الشوارع بخطوات سريعة، كأنها تهرب من ظلّ لا يتركها.

عاشت نصف حياتها تحاول أن تنسى الاسم الذي تحمله، والنصف الآخر تحاول أن تغفره لنفسها.

ابنةُ رجلٍ لم يكن طبيبًا ولا موسيقيًا، بل جلادًا ترك بصماته على أجساد الآخرين، وعلى روحها هي بالذات.

لم تكن شاهدةً على ما فعله، لكنها كانت تسمع الحكايات في كل مكان تذهب إليه.

وجوه تتغير، لكن الهمس واحد: هذه ابنة الجلاد.

كبرت ماريا وهي تقاوم أن تصبح مرآة له.

لكنها لم تنجُ من صورته التي تتسلّل كل ليلة إلى أحلامها.

في حقيبتها الصغيرة، تحمل دائمًا رسالة صفراء قديمة. ورقها مهترئ ورائحته تشبه الغرف المغلقة منذ زمن طويل.

رسالة بخطّ أبيها، لم تجرؤ يومًا على قراءتها كاملة.

كانت تتردّد بين الرغبة في تمزيقها وبين الحاجة لتركها شاهدًا على ذنبٍ لم ترتكبه.

ارتجفت أصابعها وهي تمرّرها على الحبر الباهت. للحظة، شعرت أن الكلمات ستقفز من الورقة لتحاكمها هي.

في الميناء، حيث البحر يعلو هديره مثل محكمة أبدية، جلست على مقعد خشبي وحدّقت في الأفق.

تساءلت:

– هل يمكن للابنة أن تُدان بجريمة الأب؟ أم أن حياتها باب آخر، لا يُفتح إلا بالقطع مع الماضي؟

رفعت عينيها إلى السماء، ورأت نجمة تلمع بين الغيوم.

مدّت يدها كأنها تريد الإمساك بها، ثم ابتسمت بسخرية:

– النجوم لا تُمسك، مثل الغفران تمامًا.

وحين أغمضت عينيها، رأت بابًا أحمر يقف في منتصف البحر.

سمعت ضربات كالسلاسل تنفكّ، وصوتًا داخليًا يهمس: لك أن تختاري... عبور أو بقاء.

فتحت عينيها بسرعة، كأنها خافت أن يبتلعها الحلم.

لكنها عرفت أن لحظة الاختيار ستأتي، عاجلًا أو آجلًا.

الفصل السادس: أكيرا

كان أكيرا ينحني قليلًا وهو يسير، كما لو أنه لا يزال يسمع ارتجاف الأرض تحت قدميه.

جاء من بلدٍ بعيد، تركه بعد أن ابتلعت الزلازل بيته وأصدقاءه، وبقي هو شاهدًا وحيدًا على ما يحدث حين يثور باطن الأرض.

لم يكن يرى الكوكب صخرة صمّاء، بل جسدًا حيًّا يئنّ ويتنفس ويغضب.

وحين يتكلم، يستخدم كلمات غريبة على أهل المدينة: الأرض أمّ، لكنها قاسية.

كثيرون يسخرون منه، لكنه يبتسم ابتسامة واهنة ويصمت.

يسكن غرفة صغيرة قرب الميناء، جدرانها مليئة بالشقوق. كل صباح يتأمل تلك التشققات كما لو أنها خريطة سرية، يقرأ فيها ماضيه ومستقبله.

وحين ينام، يحلم دائمًا بالزلزال نفسه: الشارع يتشقق، البيوت تنهار، الغبار يملأ السماء، وصراخ أمه يتلاشى فجأة.

بعد الصمت، يظهر باب حجري وسط الركام، يلمع كندبة في جسد الأرض.

باب لا يفتح إلا بصوتٍ عميق يشبه دويّ الأرض نفسها.

في أحد الأيام، جلس قرب البحر ووضع كفّه على الرمال. شعر بالذبذبات الخفية كما لو أن قلب الكوكب ينبض أسفل جلده.

قال لنفسه:

– الباب ليس في السماء، ولا في البحر... الباب في الأرض ذاتها.

رفع رأسه فرأى نجمة وميضها مختلف، كأنها لمعة خرجت من جوف الأرض نفسه.

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

– حتى النجوم لها جذور تحت أقدامنا.

ثم أغلق عينيه للحظة، ورأى الباب الحجري يلمع وسط الركام مرة أخرى.

مدّ يده نحوه، لكنه تراجع بسرعة، كأنه يخاف أن يسمع جواب الأرض قبل أوانه.

الفصل السابع: المقهى

كان المقهى صغيرًا عند زاوية الشارع المؤدي إلى الميناء، أبوابه الخشبية تصدر صريرًا كلما دخل أحد.

الجدران مطلية بلون باهت، والمصابيح القديمة تُلقي ضوءًا أصفر يشبه غبار الزمن.

أصوات الملاعق تختلط بضحكة عابرة من زاوية بعيدة، ورائحة البنّ تلتقي برائحة البحر المتسللة من الميناء القريب.

جلست ليلى عند نافذتها المعتادة، دفترها الأسود مفتوح على صفحة بيضاء تنتظر الكلمة.

يوسف جلس غير بعيد، يعزف على كمانه بصوت خافت، كأنه يدرّب أنامله أكثر مما يسلّي الآخرين.

ماريا دخلت بخطوات مترددة، وضعت حقيبتها على الكرسي المجاور، ثم ضغطت على الرسالة الصفراء بيدها كأنها تخشى أن تنفلت.

أما ديفيد، فقد جاء مباشرة من الطوارئ، معطفه الأبيض مطويّ على ذراعه، ووجهه يحمل تعبًا أكبر من سنواته.

أكيرا جلس في ركن قصيّ، يمرّر أصابعه على فنجان الشاي كما لو أنه يقرأ اهتزاز الأرض فيه.

لم يلتفت أحدهم إلى الآخر في البداية.

لكن شيئًا غريبًا حدث تلك الليلة: انطفأ المصباح المعلّق فجأة، وغمر المقهى صمتٌ قصير. حتى الكمان توقّف، والضحكات ذابت في الفراغ.

وفي تلك اللحظة، بدا أن صوتًا بعيدًا يطرق جدارًا خفيًا، كأنه صدى لبابٍ لم يره أحد.

حين عاد الضوء، كانوا جميعًا يرفعون رؤوسهم في اللحظة نفسها، وعيونهم تلتقي للحظة عابرة.

لم يعرفوا من أين جاء ذلك الطرق، من داخل صدورهم أم من جدار المقهى العتيق.

لكن كل واحد منهم أيقن أن الطريق لن يبقى فرديًا بعد الآن.

عاد كل واحد إلى صمته، لكنهم لم يعودوا غرباء كما كانوا قبل دقيقة.

الفصل الثامن: الكلمات الأولى

ظلّ المقهى غارقًا في صمت ثقيل بعد انطفاء المصباح.

كان كل واحد قد عاد إلى فنجانه أو دفتهره أو آلته، لكن شيئًا في العيون التي التقت للحظة لم يعد كما كان.

كان يوسف أوّل من كسر الصمت. رفع كمانه، وعزف نغمة قصيرة، واهنة لكنها واضحة، أشبه بطرقة خفيفة على باب.

ابتسمت ليلى من غير قصد، وكتبت في دفترها:
«النغمة باب، والقصيدة مفتاح».

التفت ديفيد إليها، كأنه قرأ ما كتبت بعينيه لا بالكلمات.
قال بصوت متعب:

– هل تؤمنين فعلًا أن للكلمات مفاتيح؟

رفعت رأسها نحوه، ولم تعرف لماذا أجابت بصدق:

– أؤمن أنها تفتح ما لا تفتحه الأبواب العادية.

ضحكت ماريا ضحكة قصيرة، أقرب إلى السخرية منها إلى الفرح، وقالت:

– لو كانت الكلمات تكفي، لما بقيت رسائلي مغلقة إلى الآن.

سكت الجميع لحظة، فشعروا أن كلامها أثقل من هواء المقهى.

تبادلوا نظرات سريعة، كلٌّ يخشى أن يطيل النظر أكثر. كأن اعتراف ماريا فتح نافذة خفية على ماضيهم جميعًا.

مدّ أكيرا يده على الطاولة، وقال بصوت هادئ كأنه يأتي من باطن الأرض:

– كل شيء يحتاج إلى لحظة انكسار كي يُفتح. حتى الصخور.

ساد الصمت مجددًا، لكن هذه المرة لم يكن صمت غرباء، بل صمت بداية اعتراف.

رفع يوسف كمانه ثانية، وعزف لحنًا أطول. بدا كأنه يغطي على ارتباكهم جميعًا، أو يمنحهم جسرًا يمشون عليه. ثم قال بهدوء، وكأنه يبوح بسرّ شخصي:

– أحيانًا اللحن يسبق الكلام.

عندها تكلم آدم، الذي كان يجلس قرب الباب صامتًا منذ البداية، وكأنه يتكلم لأول مرة في حياته:

– الباب موجود... أنا رأيته.

التفتت العيون كلها نحوه.

لم يعرفوا بعد إن كان يهذي أم يبوح بسرّ مشترك، لكنهم شعروا أن الكلمات التي خرجت منه لم تكن عابرة.

الفصل التاسع: بداية الحكايات

ظلّ صدى كلمات آدم يعلّق في هواء المقهى: «الباب موجود... أنا رأيته.»

لم يتجرأ أحد على كسر الصمت فورًا، كأنهم جميعًا كانوا يبحثون عن تفسير لما شعروا به منذ لحظة انطفاء المصباح.

كانت ليلى أوّل من تكلم. أغلقت دفترها بهدوء، ثم قالت بصوت خافت:

– أنا كتبت آلاف الكلمات، لكني لم أفتح بابًا واحدًا. الكلمات تنقذني من الوحدة، لكنها لا تعيدني إلى الوطن.

ارتجفت يد يوسف على الكمان، وقال وهو يحدّق في الأرض:

– الوطن... نعم. أنا أيضًا فقدت بيتي، بقيت آلة خشبية أحملها معي، كأنها جواز سفر وحيد لا ينتهي تاريخه.

ثم عزف مقطعًا قصيرًا، هذه المرة بدا أشبه بأنين طفل يبحث عن صدر أمه.

تنفّس ديفيد بعمق، وكأنه يقرر أن يخلع قناع الطبيب:

– أبي كان طبيبًا مثلي. لكنهم يقولون إنه صمت حين كان يجب أن يتكلم. لا أعرف إن كان مذنبًا أو بريئًا، لكني أحمل ذنبه على كتفيّ... حتى وأنا أُنقذ حياة الآخرين.

خفضت ماريا رأسها، وأخرجت الرسالة الصفراء من حقيبتها. ورقها مهترئ، حبرها باهت، ورائحتها تشبه غرفًا أُغلقت منذ زمن. وضعتها على الطاولة دون أن تفتحها.

– هذه... كل ما تبقّى من أبي. لم أقرأها كاملة. أخشى أن أجد فيها حكمًا لا أستطيع أن أغيّره.

ارتجفت شفتاها للحظة، لكنها تداركت نفسها سريعًا.

نظر يوسف إلى الرسالة كأنه يسمع لحنًا حبيسًا فيها لم يُعزف بعد.

ساد الصمت مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يكن صمت غرباء، بل صمت اعترافات ثقيلة تتقاطع على الطاولة نفسها.

هدير البحر البعيد تسرّب إلى المقهى، كأنه يشاركهم الإصغاء.

مدّ أكيرا يده نحو فنجانه الفارغ، وقال بهدوء يشبه ارتجاف الأرض:

– أنا فقدت كل شيء في لحظة واحدة. بيت، أصدقاء، أمّ. لم يبقَ سوى صدى الزلزال في أحلامي. ومع ذلك... الأرض لم تبتلعني. كأنها تركتني شاهدًا لأجل باب لم يُفتح بعد.

رفع آدم رأسه، وصوته هذه المرة أكثر ثباتًا:

– أنتم جميعًا تعرفونه من الداخل... لكني أنا رأيته بعيني. الباب حقيقي.

تلاقَت العيون من جديد، ولم يعد السؤال: هل الباب موجود؟

بل صار: متى سنجده... معًا؟

الفصل العاشر: بداية البحث

في تلك الليلة، بدا المقهى كأنه غرفة اعتراف جماعية.

لم يجرؤ أحد على النهوض، كأن الأقدام نفسها التصقت بالأرض.

فقط صوت الملاعق من الطاولات الأخرى كان يذكّرهم أن العالم مستمر خارج هذه الدائرة الصغيرة.

قال يوسف وهو يمرر أصابعه على أوتار كمانه:

– إن كان الباب حقيقيًا... فلا بد أن له مكانًا. لا باب بلا جدار، ولا جدار بلا أرض.

ردّ أكيرا بابتسامة شاحبة:

– صحيح. الأرض نفسها تهمس به. أنا سمعت دويّه في أحلامي كما أسمع الزلازل.

وضعت ليلى يدها على دفترها، ثم همست:

– والقصائد أحيانًا تعرف الطريق قبل العيون. ربما الكلمات سترشدنا.

تنحنح ديفيد وهو يحاول إخفاء ارتباكه:

– أنتم تتحدثون عن حلم... لكني طبيب، معتاد على الأجساد والحقائق. ومع ذلك... منذ قليل، وأنا أسمعكم، تذكرت أن أبي كان يذكر بابًا أبيض في كوابيسه. لم أفهمه أبدًا.

شهقت ماريا، كأن الكلمات ضربت شيئًا بداخلها. أخرجت الرسالة الصفراء من جديد، ورقها مهترئ وحبرها باهت ورائحتها تشبه غرفًا مغلقة منذ عقود. وضعتها في وسط الطاولة وقالت:

– ربما في هذه الورقة جواب. لكني لا أستطيع قراءتها وحدي.

ارتجفت أصابعها، فمدّت ليلى يدها لطمأنتها، لكن ماريا سحبت يدها سريعًا.

نظر يوسف إلى الرسالة كما لو أنه يسمع لحنًا حبيسًا لم يُعزف بعد.

ساد الصمت، فقط هدير البحر من بعيد يطرق على نوافذ المقهى كأنه يشاركهم القرار.

عندها قال آدم، بوجه أكثر ثباتًا مما بدا في أي لحظة سابقة:

– الباب ليس حلمًا. أنا رأيته، فوق السطح، ليلة انطفأت فيها كل أضواء المدينة. لم أدخله... لكني شعرت أنه ينتظرني. ينتظرنا جميعًا.

رفعت ليلى عينيها، وقالت بصوت يكاد يكون همسًا:

– إذن... لنبحث عنه معًا.

تبادلوا النظرات، أثقل من أي وعد.

ثم سأل يوسف ببطء:

– لكن... أين نبدأ؟

تحت ضوء المصباح العتيق، ارتجف السؤال في الهواء كأنه أول خطوة في طريق لم يُرسم بعد.

الفصل الحادي عشر: الرسالة الصفراء

بقيت الرسالة في وسط الطاولة كأنها قلب المقهى.

كانت العيون كلها مسمّرة عليها، لكن أحدًا لم يمد يده.

الورقة صفراء، أطرافها مهترئة، وحبرها باهت، ومع ذلك بدت أثقل من أي كتاب مقدّس.

قالت ماريا بصوت متردّد:

– لم أجرؤ يومًا على قراءتها كاملة. كلما فتحتها، سمعت صدى أبي يلاحقني.

مدّت ليلى يدها ببطء، نظرت إلى ماريا كأنها تستأذنها.

هزّت ماريا رأسها بصمت، وسمحت لها.

ارتجفت أصابع ليلى وهي تفتح الطيّة القديمة، فصدر صوت خافت، كأن الورقة تتنفس لأول مرة منذ سنوات.

انحنى يوسف قليلًا إلى الأمام، كأنه يريد أن يلتقط الكلمات قبل أن تُقال.

أما ديفيد فشدّ قبضته حتى ازرقّت أصابعه.

بدأت ليلى تقرأ بصوت متقطّع:

"إلى من سيحمل اسمي بعدي...

اعلم أني لم أكن جلادًا إلا بقدر ما كنت سجينًا.

الباب الذي رأيته لم يكن خلاصًا لي، بل دينًا يورّثني لأطفالي.

ستجدينه عند الميناء، حيث يلتقي البحر بالحجر. هناك يقف الباب الأحمر، لا يُفتح إلا إذا اجتمع من فقدوا كل شيء."

ارتجف صوتها عند الكلمة الأخيرة.

شهقت ماريا وأمسكت رأسها بيديها، ثم أسندت جبينها إلى الطاولة. دمعة ساخنة أفلتت رغم مقاومتها الطويلة.

قال يوسف بصوت مبحوح:

– "لا يُفتح إلا إذا اجتمع من فقدوا كل شيء."... نحن إذن؟

أجاب أكيرا وهو يضغط على فنجانه الفارغ:

– الأرض لا تختار عبثًا.

يبدو أن الباب ينتظرنا جميعًا.

أما ديفيد، فقد أخذ الرسالة بيد مرتجفة، وحدّق في الحروف القديمة طويلًا قبل أن يقول:

– أبي كان يصرخ باسم الباب الأبيض في كوابيسه... ربما هو نفسه الباب الأحمر. ألوان تختلف، لكن الجدار واحد.

ساد صمت عميق، فقط هدير البحر من بعيد يتردّد كأن الأمواج تحفظ السر معهم.

كانت الرسالة قد فتحت ليس فقط سرّ الأب، بل طريقًا جديدًا.

قال آدم أخيرًا، وعيناه تلمعان:

– إذن، الميناء هو البداية.

الفصل الثاني عشر: الميناء

كان الليل يلفّ الميناء كعباءة سوداء، والبحر يضرب الصخور بإيقاع يشبه دقات قلبٍ متسارع.

الريح الباردة تحمل رائحة الملح والصدأ، وأضواء السفن البعيدة تلمع كنجوم سقطت في الماء.

وصلوا معًا، للمرة الأولى، كأن الرسالة قادت خطواتهم رغم خوف كل واحد منهم.

وقفوا أمام الساحة الواسعة، حيث يلتقي البحر بالحجر.

لم يكن هناك باب ظاهر... فقط جدار قديم، بنيانه متآكل، تغطيه طبقة رطبة من العشب.

قال يوسف وهو يمرر يده على الجدار:

– هل يمكن أن يختبئ باب هنا؟ هذا مجرد حجر.

أجابه أكيرا وهو يضع كفه على الأرض:

– الحجر يسمع أكثر مما نسمع. أحيانًا الأبواب لا تُرى بالعين، بل بالارتجاف.

تقدّمت ليلى خطوة، وضعت دفترها على الجدار وهمست:

– الكلمات تعرف الطريق... دعوني أكتب.

كتبت جملة قصيرة: «نحن الذين فقدنا كل شيء.»

وفجأة تغيّر هدير البحر، كأن الأمواج توقفت لتصغي. ارتجف الهواء من حولهم، وبرودة غير مألوفة تسللت إلى عظامهم.

شهقت ماريا وتراجعت للخلف، ثم صرخت:

– الباب... هناك!

بين الشقوق، لمع خط أحمر باهت، ثم اتسع تدريجيًا، كأن الجدار نفسه ينشقّ ليكشف عن باب مختوم بالدم.

اقترب ديفيد ببطء، عيناه متسعتان، والعرق يلمع على جبينه:

– إنه حقيقي... كوابيس أبي لم تكن مجرد كوابيس.

وقفوا جميعًا أمام الباب الأحمر، تتداخل أنفاسهم مع هدير البحر العائد أقوى من ذي قبل.

مدّ آدم يده نحو المقبض الحديدي الصدئ، لكنه توقف فجأة وقال:

– لن يُفتح إلا بنا جميعًا... هكذا قالت الرسالة.

مدّت ماريا يدها أولًا، ثم تبعها يوسف، فليلى، فديفيد، وأخيرًا أكيرا.

ستة أيادٍ على مقبض واحد.

ارتجف الباب بقوة، وانبعث منه صوت يشبه صرير السلاسل.

وفي تلك اللحظة، بدا كأنه ينبض قلبًا حيًّا، ضوؤه الأحمر يضيء وجوههم المتوترة.

لكن الباب لم ينفتح بعد.

بل أضاءت على سطحه كلمات من نور دامٍ:

«أدخلوا إن استطعتم أن تواجهوا ما فقدتم.»

الفصل الثالث عشر: مواجهة الفقدان

توهّجت الكلمات الحمراء على سطح الباب كجمرٍ حيّ:

«أدخلوا إن استطعتم أن تواجهوا ما فقدتم.»

ساد صمت ثقيل، كأن البحر نفسه حبس أنفاسه.

كل واحد شعر أن الجملة لم تُكتب للجميع، بل خُصّت به وحده.

اقترب يوسف أولًا. وضع كفّه على الخشب الأحمر، فإذا بالباب يلمع ويعرض أمامه مشهدًا كأنه مرآة من نار:

بيت صغير ينهار، وأصوات صراخ تتلاشى بين الأنقاض.

أمسك يوسف بكمانه، عزف نغمة مرتجفة، لكن الصوت انكسر وسط العاصفة. دمعت عيناه، ثم قال بصوت مبحوح:

– نعم... فقدت بيتي، لكن الموسيقى بقيت بيتي.

تراجع خطوتين، والباب خفت ضوؤه قليلًا، كأنه اعترف بصدقه.

ثم تقدمت ماريا، يداها ترتجفان. لمست الباب، فرأت أباها جالسًا على الطاولة، يكتب الرسالة نفسها. عيناه غارقتان بالندم.

شهقت، وكادت تسقط أرضًا، فأمسكتها ليلى من ذراعها بسرعة.

تمتمت ماريا:

– أبي... لم أكرهك، لكنني لم أقدر أن أغفر.

ثم وضعت يدها على قلبها وقالت بصوت مسموع:

– الآن أغفر... لأمضي.

أضاء الباب لحظة، وانطفأ ثانية، وصوت البحر ارتفع كأنه يصفّق لها.

جاء دور ديفيد. حين لمس الباب، رأى أبيه مكبّل اليدين، بين قضاة صامتين.

صرخ:

– كنتَ تستطيع أن تتكلم! لماذا سكتَّ؟!

ظلّ الصمت يطوّق المشهد، حتى همس ديفيد:

– سأكمل ما لم تفعل... سأشهد بدلًا عنك.

نظر إلى ماريا، فرأى دموعها، فاستمد منها شجاعة غريبة، كأن جراحهم بدأت تتكامل لتصنع قوة مشتركة.

حينها ارتجف الباب بعنف، وأطلق صريرًا كأن الحديد يتألم.

اقتربت ليلى بخطوات بطيئة. وضعت دفترها على الباب، فانفتحت أمامها صور وطنها البعيد: الأزقة، الأشجار، صوت أمها يناديها.

غرقت عيناها بالدموع، كتبت جملة على الورقة:
«سأكتب الوطن في الكلمات لأبنيه من جديد.»

لمعت الحروف على الباب، كأنها تُقرأ معه، فارتجف يوسف تأثرًا وأمسك كمانه كأنه يرافقها بلحن صامت.

أما أكيرا، فحين لمس الباب، اهتزت الأرض تحت قدميه، وسمع صرخة أمه وهي تُبتلع في الزلزال.

أغمض عينيه، وجثا على ركبتيه، وضع كفه على الأرض وهمس:

– الأرض أخذتك... لكني ما زلت هنا. سأحيا لأجلك.

هدأ الاهتزاز، وخفتت الصور، كأن الأرض احترمت صمته.

بقي آدم أخيرًا.

مدّ يده، ولم يظهر شيء.

ابتسم ابتسامة غريبة، نصفها حزن ونصفها سرّ، وقال:

– لم أفقد شيئًا... أو ربما فقدت كل شيء قبل أن أبدأ.

رفع عينيه نحوهم وأضاف:

– أنتم فقدتم ما تحبّون... أما أنا فقد فقدت نفسي، منذ زمن لم أتذكره.

ارتعش الباب فجأة، وتوهّج بكامله كأنه اشتعل نارًا حمراء.

صوت البحر تلاطم بقوة، والريح دوّت كصرخة بعيدة.

ثم انطفأ الضوء فجأة، تاركًا الصدى يتردّد:

«اجتمع الفقد... فاقترب الوصل.»

الفصل الرابع عشر: العبور

لمّا خفت وهج الكلمات، ساد صمت ثقيل.

ثم بدأ الباب الأحمر يصدر صوتًا عميقًا، أشبه بقرع طبل من تحت الأرض.

المقبض الحديدي اهتزّ تحت أياديهم، والضوء الأحمر تسلّل إلى الشقوق، يتّسع شيئًا فشيئًا كأن الجدار نفسه يتنفس.

شهقت ماريا وهي تتراجع خطوة:

– إنه ينفتح!

ارتجف الهواء من حولهم، والبحر تضاعف هديره، كأن الموج نفسه يستجيب لانشقاق الجدار.

تساقط الغبار من الحجارة، وانفلق الباب إلى نصفين ببطء، كأن كل حجر يقاوم الرحيل عن مكانه.

ومن الداخل اندفعت ريح دافئة، محمّلة برائحة غريبة: ليست رائحة البحر ولا التراب، بل مزيج يشبه ذاكرة قديمة لم يعرفوها من قبل.

تبادلوا نظرات صامتة، كلٌّ يطلب الشجاعة في عيني الآخر.

ثم تقدّم آدم أولًا، صوته ثابت رغم الرجفة الخفيفة:

– الطريق بدأ... لنعد.

دخلوا واحدًا تلو الآخر.

كانت الخطوة الأولى كأنها تسقطهم في صمت مطلق: لا هدير بحر، لا أصوات، فقط فراغ.

ضغط ثقيل اجتاح صدورهم، كأن الهواء نفسه صار أثقل من الرصاص.

ثم خفّ فجأة، فشعروا أنهم يمشون بلا أقدام، عالقين بين السقوط والطيران.

وحين اعتادت أعينهم، رأوا فضاءً واسعًا من ضوء رماديّ، أرضه لامعة كالماء لكنها صلبة تحت أقدامهم، وسماءه بلا لون ولا نجوم.

التفتوا خلفهم فلم يجدوا إلا بياضًا ممتدًا بلا حدود، كأن الباب الذي دخلوا منه قد ابتلع نفسه.

قال يوسف وهو يرفع كمانه كأنه يبحث عن نغمة:

– كأننا عبرنا من العالم إلى صدى العالم.

اقتربت ليلى من ماريا، أمسكت يدها وقالت:

– لا عودة بعد الآن.

أخذ أكيرا نفسًا عميقًا، ثم همس:

– هنا... سنعرف معنى الفقد.

وفجأة ارتفع في الفضاء صوت غريب، لا من فم ولا من حنجرة، بل كأن الأرض نفسها تتكلم:

«من فقد... سيُختبر. ومن صمد... سيجد الوصل.»

الفصل الخامس عشر: الاختبارات

لمّا خبت الكلمات في الفضاء الرمادي، شعروا أن الأرض نفسها تنسحب من تحت أقدامهم.

انقسمت الأرضية اللامعة إلى دوائر من نور، كل دائرة تحيط بأحدهم.

ثم تلاشى الآخرون عن نظر كل واحد، كأن الضباب ابتلعهم، تاركًا كل شخص في عالمه الخاص.

يوسف

وجد نفسه واقفًا وسط أنقاض بيته القديم.

الكمان مكسور عند قدميه، والأوتار مقطوعة.

سمع صوت طفل يبكي من الداخل.

ركض، لكن كلما اقترب، تهدمت الجدران أكثر.

صرخ:

– الموسيقى وحدها لم تكفِ... لكني لن أتخلى عنها.

جمع الأوتار الممزقة بيديه المرتجفتين، وربطها من جديد.

وحين عزف، انبثق نور دافئ غمر المكان، وتلاشى البكاء.

انطفأ المشهد تدريجيًا، وحلّ ظلام قصير قبل أن يتكوّن عالم آخر.

ماريا

وجدت نفسها في غرفة مظلمة، لا شيء فيها سوى طاولة، فوقها الرسالة الصفراء.

لكن حين فتحتها، لم تجد كلمات، بل مرآة تعكس وجهها هي.

سمعت صوت أبيها:

– الغفران يبدأ من نفسك.

بكت طويلًا، ثم مسحت دموعها بيدها وقالت:

– إذن... أغفر لنفسي أيضًا.

فتح انعكاسها عينيه وابتسم، ثم ذاب في ضوء أبيض غمر الغرفة.

وبينما اختفى الضوء، أحست برعشة غريبة، كأن لحنًا بعيدًا يتردد في أذنها... لحن كمان لم تعزفه هي.

ديفيد

كان في قاعة محكمة، المقاعد ممتلئة بوجوه غريبة تحدّق فيه.

في القفص الحديدي... لم يرَ أباه، بل نفسه.

ارتبك، ثم صاح القاضي:

– أأنت مذنب بالصمت؟

شعر أن الكلمات تخنقه، لكنه تذكّر رفاقه.

قال بصوت عالٍ:

– لا! لن أصمت بعد الآن. سأكون صوتي وصوت أبي.

تشقق القفص، وانبعث نور ساطع حرّره.

وفي لحظة خروجه، شعر بدمعة تسقط على يده...
دمعة لم تكن منه، كأنها عبرت من عالم آخر.

ليلى

وجدت نفسها في شارع وطنها البعيد، لكنه بلا أصوات، بلا حياة.

رفعت دفترها لتكتب، لكن الأوراق فارغة لا تحتمل الحبر.

جلست على الأرض وبكت.

ثم سمعت صوت أمها يناديها من بعيد:

– اكتبي بدموعك أولًا.

سقطت دمعة على الصفحة، فتحولت إلى كلمات مضيئة: «الوطن لا يموت في القلب.»

امتلأت الصفحات بالقصائد، وعاد الشارع يفيض بالحياة.

وسط الأصوات العائدة، سمعت نغمة كمان بعيدة، لم تعرف من أين جاءت، لكنها أعطتها يقينًا أنها ليست وحدها.

أكيرا

كان يقف وسط أنقاض مدينة، الزلزال يتكرر أمام عينيه.

الأرض تهتز بعنف، والجدران تنهار.

سمع صرخة أمه، فركض، لكنه لم يجدها.

جثا على ركبتيه، وضع يديه على الأرض وهمس:

– إن كانت الأرض أخذتك، فهي أيضًا تحميني.

فهدأ الاهتزاز فجأة، وتحول الخراب إلى بستان أخضر.

ومع نسيمه، أحسّ كأن قصيدة ما تتردّد من بعيد، قصيدة لم يكتبها هو.

آدم

وجد نفسه في فراغ أسود تمامًا.

لا أرض، لا سماء، لا ذكريات.

ظل يمشي، لكنه لم يجد شيئًا.

سمع صوتًا يشبه صوته هو:

– أنت لم تفقد شيئًا... لأنك لم تملك شيئًا.

ابتسم بمرارة وقال:

– إذن فقدت نفسي منذ البداية. لكن... هؤلاء الذين معي أعادوا لي نفسي.

فانشق السواد، وظهر أمامه طريق من نور يقوده للآخرين.

عادوا جميعًا إلى الدائرة الأولى، منهكين لكن وجوههم أكثر صفاءً.

كانوا يدركون – رغم عزلتهم – أنهم لم يكونوا وحدهم أبدًا، فكل فقد تردّد صداه في الآخر.

أضاء الفضاء الرمادي كله فجأة، وصوت الأرض يعود:

«من واجه فقده... استحق الوصل

الفصل السادس عشر: الوصل

حين خبت الأصوات الأخيرة، أضاء الفضاء الرمادي كأنه فجر بلا شمس.

دوائر النور التي جمعتهم عادت لتندمج في دائرة واحدة واسعة، كأنها حضن لا متناهٍ.

وقفوا جميعًا متلاصقين، وكل منهم ما زال يحمل في عينيه أثر المواجهة، لكن الوجوه كانت أكثر صفاءً من أي وقت مضى.

وفجأة، ارتفع أمامهم قوس ضخم من نور، يمتد إلى السماء الرمادية مثل جسر معلّق بين عالمين.

لم يكن من حجر ولا من خشب، بل من خيوط ضوء تتغير ألوانها كأنها أنغام مرئية.

ومن داخله علت كلمات لم يسمعوها بأذن، بل أحسّوها في قلوبهم:

«الوصل ليس بابًا يُفتح...

الوصل أن يصبح فقدك خيطًا يربطك بالآخر.

أن ترى في دمعة غيرك امتداد دمعتك.

أن تفهم أن جرحك ليس وحيدًا.»

تبادلوا النظرات.

كانت ماريا أول من همست:

– إذن... لم يكن الهدف أن نواجه وحدنا فقط. بل أن نكمل بعضنا.

اقترب يوسف، ورفع كمانه، فعزف نغمة قصيرة.

لكنها لم تكن كسابقاتها: هذه المرة، شعروا جميعًا أنها خرجت من صدورهم معًا، لا من أوتار يوسف وحده.

ليلى كتبت جملة في دفترها: «الكلمة ليست لي... بل لنا.»

ولمّا أنهت، وجدت الحبر قد تحوّل إلى نور، وامتلأت الصفحات بالكتابة من تلقاء نفسها.

ضحك أكيرا ضحكة قصيرة، وركع على الأرض:

– الأرض التي أخذت أمي... تعيدها الآن فيكم.

أما ديفيد، فتنفّس بعمق وقال:

– ربما لم أستطع إنقاذ أبي... لكنني أنقذت صوتي بينكم.

ظلّ آدم صامتًا للحظة، عيناه تتابعان ألوان الجسر المتبدلة، ثم قال بصوت غامض:

– كنت أظن أني لا أملك شيئًا... لكن ربما كنت أملك هذا منذ البداية. لم أعرف اسمه، وها أنتم تسمونه: الوصل.

ارتعش الجسر، وتدفّق منه ضوء دافئ غمرهم جميعًا.

أحسّوا بحرارة تسري في عروقهم، كأن الدم نفسه صار نورًا.

كان الهواء ثقيلاً للحظة، ثم صار خفيفًا حتى شعروا أنهم يطفون فوق الأرض.

واندمجت أنفاسهم في إيقاع واحد، كأنهم قلب واحد ينبض بستة صدور.

ثم دوّى الصوت مجددًا:

«لقد وجدتم الوصل... لكن الرحلة لم تنتهِ بعد.

فما بعد الوصل... امتحان آخر.»

وانفتح الجسر على فضاء أوسع، كأن الرمادي نفسه يتشقق ليكشف عن عالم جديد لم تلمحه أعينهم من قبل.

الفصل السابع عشر: امتحان التضحية

عبروا الجسر، وكل خطوة كانت كأنها تعزف لحنًا صامتًا، تتغير ألوان النور تحت أقدامهم مع إيقاع أنفاسهم.

حتى وصلوا إلى نهايته، حيث انفتح الفضاء على ساحة واسعة من نور ذهبي، وفي وسطها حجر أسود ضخم، ينبض ببطء كقلب حيّ.

اقتربوا بحذر، وفجأة ارتفع الصوت ذاته الذي قادهم منذ البداية:

«الوصل لا يكتمل إلا إذا جُرّب بالتضحية.

من منكم سيتخلى عن شيء يحبه... ليبقى الوصل حيًّا؟»

ساد صمت طويل.

شعر كل واحد أن السؤال وُجّه إليه شخصيًا.

– يوسف شدّ على كمانه، كأنه يخاف أن يُنتزع منه.

– ماريا قبضت على دفتر ليلى بغير وعي، كأنها تبحث عن قوة في كلمات ليست كلماتها.

– ديفيد نظر إلى يديه، يتذكر صمته القديم، وكأن صوته قد يبدأ في الانسحاب من حنجرته.

– أكيرا حدّق في الأرض، يهمس: "هل عليّ أن أتركها مرة أخرى؟"

– ليلى ضمّت دفترها إلى صدرها بقوة.

– أما آدم، فاكتفى بابتسامة غامضة، يراقبهم بصمت.

فجأة انبثق من الحجر الأسود ستة خيوط من نور، التفّت حول معاصمهم جميعًا.

كانت ساخنة كالنار، تخترق عروقهم كأنها تسحب منهم شيئًا أعمق من الدم.

سمعوا الصوت من جديد:

«لا أحد يخرج إلا إذا اتحدتم.

لا تكفي تضحية فرد... يجب أن تتقاسموا التضحية معًا.»

يوسف أحس أن كمانه يثقل بين يديه، أوتاره تذوب كقلب يُنتزع من صدره.

ارتجفت أصابعه حتى سال منها عرق بارد، كأن الموسيقى نفسها تُسحب من روحه.

ماريا رأت صورة أبيها تتلاشى من ذاكرتها. صرخت:

– لا! لا تأخذوه! إنه آخر ما يربطني به!

لكن يد ديفيد أمسكت كتفها بقوة، فقال:

– لن تفقديه وحدك... نحن نحمل معك.

ديفيد بدوره أحس أن صوته يختفي من حنجرته، حروفه تتبخر قبل أن تنطق.

ارتجف وقال:

– إن عاد صمتي... سأموت حيًّا.

اقتربت ليلى، وضعت دفترها على صدره:

– خذ كلماتي، لتبقى نبرة صوتك.

ليلى شعرت أن الكلمات تتساقط من دفترها، صفحاته تصير بيضاء واحدة تلو الأخرى.

دموعها سالت، لكنها سمعت يوسف يعزف نغمة قصيرة رغم الألم، فشعرت أن صفحاتها تمتلئ من جديد.

أكيرا وجد أن الأرض تهتز من تحته، تتشقق كأنها تنسحب من قدميه.

سقط على ركبتيه، صرخ:

– لا أستطيع! الأرض تتركني!

لكن آدم مدّ يده وأمسك بذراعه، صوته ثابت:

– لن تتركك... ما دمنا نحن أرضك.

امتزجت خيوط النور من معاصمهم، وصارت شبكة واحدة تربطهم جميعًا.

ومع ذلك الارتباط خفّ الألم فجأة، كأن الفقد توزّع بينهم بالتساوي.

وهتف الصوت، هذه المرة أعلى وأقرب من أي وقت مضى:

«هذا هو الامتحان... أن تشتركوا في الفقد حتى لا يبتلعكم وحدكم.

لقد اجتزتم التضحية... لأنكم وزّعتموها بينكم.»

ارتجّ الحجر الأسود، وانكسر إلى شظايا من نور، تطايرت في الفضاء مثل نجوم جديدة.

وانفتح أمامهم ممر طويل، كأن السماء نفسها انشقّت لتصنع طريقًا من ضوء.

الفصل الثامن عشر: عالم النجوم

دخلوا الممر المضيء، وكل خطوة كانت كأنها تُذيب ما تبقّى من الرمادي خلفهم.

ومع تقدّمهم، بدأ الفضاء يتسع شيئًا فشيئًا، حتى انفتح فجأة على مشهد لم يرَ مثله أحد منهم من قبل:

سماء بلا نهاية، مليئة بآلاف النجوم المتلألئة، تدور ببطء كأنها ترقص على إيقاع خفي.

كان الصمت هناك كثيفًا، كأنه مادة ملموسة تضغط على صدورهم.

كل نفس يخرج منهم بدا كوميض صغير يذوب في الفضاء ويصير جزءًا من ذلك البريق الهائل.

الأرض تحت أقدامهم اختفت، وصاروا يسيرون فوق بساط من ضوء شفاف يطفو بين الكواكب.

شهقت ليلى، وكتبت بسرعة في دفترها: «دخلنا قلب الكون... لا، بل دخلنا قلب أنفسنا.»

فلمّا أنهت، انفصلت الكلمات عن الصفحة وتحولت إلى نجمة صغيرة انضمت إلى البقية في السماء.

اقترب يوسف، رفع كمانه وعزف نغمة قصيرة.

لكن بدل أن يسمعها وحده، رأوا أن النغمة تحولت إلى خط من نور طار نحو الفضاء، فأضاء كوكبًا بعيدًا للحظة.

ماريا تمتمت:

– النجوم... إنها ليست بعيدة عنا، إنها أصواتنا وذكرياتنا التي عبرت الامتحانات.

وقف أكيرا مذهولًا، وقال:

– كأن كل فقدٍ مررنا به تحوّل إلى نجمة... إلى ضوء يهدي من يأتي بعدنا.

آدم، الذي ظل صامتًا حتى الآن، نظر طويلًا إلى الفضاء، ثم قال بنبرة غامضة:

– لكن تذكروا... ليس كل ضوء يكتمل. أحيانًا يحتاج الظلام إلى من يفهمه، لا من يهرب منه.

وفجأة، ارتفع أمامهم كوكب ضخم، ليس مضيئًا بل مظلمًا تمامًا.

كان يشبه حفرة هائلة، يبتلع الضوء من حوله.

كل نجم يقترب منه يخفت حتى يختفي داخله، ويصدر من جوفه صوت مكتوم، كأنها أنفاس من انطفأوا قبلاً.

ومن داخله انطلق الصوت الذي صاروا يعرفونه:

«هنا أصل الامتحانات.

هنا يُختبر كل من فقد... لتتحوّل جراحه إلى نور.

لكن قبل أن تعبروا، عليكم أن تختاروا:

هل ستبقون أنتم نورًا، أم ستلقون نوركم في هذا الظلام... لتفتحوا الطريق لغيركم؟»

ساد صمت عميق.

تبادلوا النظرات، وكل واحد منهم فهم أن الامتحان القادم ليس عن الفقد وحده... بل عن المصير نفسه.

الفصل التاسع عشر: الكوكب الأسود

اقتربوا من الكوكب المظلم، وكل خطوة نحوه كانت أثقل من التي قبلها، كأن الفضاء نفسه يحاول صدّهم.

النجوم من حولهم بدت مترددة، بعضها يومض ثم يخبو، وكأنها تخشى السقوط في فمه الهائل.

عند الحافة شعروا أن أجسادهم تُسحب ببطء، وأن برودة غريبة تسري في عروقهم.

دوّى في صدورهم خفق غير مألوف، نصفه خوف ونصفه نداء.

ومن جوف الكوكب ارتفعت همسات مكتومة، كأنها أصوات من ذابوا فيه من قبل... أصوات متداخلة بين استغاثة ولعنة.

ارتفع الصوت ذاته، أشد قربًا من أي وقت مضى:

«هنا يقرَّر المصير.
من يضيء يبقى، ومن يذُب في الظلام يفتح الطريق.
لكن لا يمكن للجميع أن يبقوا.
اختاروا... أو سيُختار عنكم.»

ارتجفت ماريا، دموعها تلمع في النور الباهت:
– أن نختار... من يضيء ومن يذوب؟! هذا قاسٍ!

أجاب ديفيد، وجهه متصلّب:
– نحن لم نصل إلى هنا لنهرب من الحقيقة. التضحية الفردية لن تكفي هذه المرة... إنه مصيرنا جميعًا.

ليلى ضمّت دفترها إلى صدرها، همست وصوتها يتهدج:

– إن ذاب نوري... ستبقى كلماتي فيكم.

يوسف رفع كمانه، عينيه دامعتان:

– وإن رحلتُ، فلتعزفوا لحني أنتم.

أكيرا ضرب بساط الضوء بقبضته، كأنه يضرب أرضًا صلبة:

– لا! لسنا مضطرين أن نفترق. يجب أن يكون هناك طريق آخر!

لكن الخيوط المضيئة التي ربطت معاصمهم منذ امتحان التضحية بدأت تهتز، كأنها تستعد للانفصال.

ارتفعت الهمسات من الكوكب حتى صارت أقرب إلى صرخات، تدعوهم إلى الاختيار.

عندها نظروا جميعًا إلى آدم.

كان واقفًا بهدوء، عيناه تتأملان الظلام الذي يبتلع كل ضوء.

ابتسم ابتسامة باهتة وقال بصوت مبحوح:

– منذ البداية كنتُ بلا نور... ربما وُجدتُ لأكون الجسر بينكم وبين هذا الظلام.

صرخت ماريا وهي تخطو نحوه:

– لا تقل هذا! أنت واحد منا!

لكن آدم أكمل، نبرته غامضة:

– كل واحد منكم حمل فقدًا، وحوّله إلى نجمة. أما أنا... فكنت فقدًا بلا اسم. ربما مكاني هنا.

دوّى الصوت مرة أخرى، هذه المرة كأنه يصدر من قلوبهم هم:

«القرار ليس فرديًا... إنما جماعي.

من ستسمحون له أن يذوب... ومن ستحملون نوره معكم؟»

ساد صمت رهيب.

حتى النجوم في السماء تجمدت، وكأن الكون كله ينتظر جوابهم.

الفصل العشرون: القرار

وقفوا عند حافة الكوكب الأسود، والهمسات المتصاعدة منه صارت كأنها أنفاس حية تلتف حولهم.

الخيوط المضيئة المرتبطة بمعاصمهم اهتزت بعنف، كل خيط يشدّ صاحبه نحو الظلام.

قال الصوت، هذه المرة كأنه يخرج من أفواههم معًا:

«الوقت ينفد... اختاروا الآن.»

ترددت ماريا، دموعها تغرق عينيها:

– لا أستطيع أن أقول... من منا يجب أن يذوب؟!

اقترب منها يوسف، صوته مبحوح لكنه ثابت:

– لهذا السبب... القرار لا يمكن أن يكون بالكلمات. يجب أن يكون بالفعل.

خطا آدم إلى الأمام، وقف على حافة السقوط.

ابتسامته كانت أهدأ من أي وقت مضى:

– منذ البداية كنت أعيش بلا نور. أنتم صنعتم من فقدكم نجومًا، وأنا كنت ظلاً بلا اسم. دعوني أكون الجسر الأخير.

صرخت ليلى وهي تمد يدها نحوه:

– لا! إن رحلت، ستُطفأ صفحة منّا.

لكن الخيط حول معصمه بدأ يضيء أكثر من البقية، كأنه يستعد للانفصال.

رفع آدم يده وقال:

– لا تبحثوا عن عدالة هنا... ابحثوا عن معنى.

ديفيد صاح، صوته يختنق:

– لن نتركك تذوب وحدك! إذا كان لا بد من التضحية، فلتكن معًا.

في تلك اللحظة شدّ يوسف كمانه، عزف لحنًا قصيرًا، فاندمجت الخيوط كلها في ضوء واحد عظيم، التفّ حولهم جميعًا.

أحسّوا بحرارة تجتاح عروقهم، كأن الدم نفسه يذوب في نور واحد.

اختفى الثقل من أجسادهم، ثم شعروا أنهم ينصهرون معًا، لا كأفراد بل ككيان واحد.

ارتجف الكوكب، وارتفعت الهمسات إلى صرخات، لكن بدل أن تبتلعهم، انفتحت فجوة واسعة في قلب الظلام.

لم يسقط أحد... بل انجرفوا معًا عبرها، كأنهم موجة من نور اخترقت السواد.

وعندما عبروا، سمعوا الصوت الأخير يتردد في داخلهم:

«اخترتم أن تذوبوا معًا... فصرتُم نجمًا واحدًا.

لم تعودوا مجرد ضوء... بل صرتم سماء جديدة.»

ثم انفجر الكوكب الأسود إلى آلاف الشظايا المضيئة، تطايرت في الفضاء مثل ولادة جديدة للنجوم.

وأحسّوا أنهم يتفتتون مع شظاياه، لكن بدل الفناء، وجدوا أنفسهم يمتدون في كل اتجاه، كأن أرواحهم صارت أفقًا يحتضن كل نجمة.

وفي اللحظة الأخيرة، اجتاحتهم قوة عاتية، سحبتهم نحو عالم آخر لم تلمحه أعينهم بعد...

الفصل الحادي والعشرون: العالم الجديد

فتحوا أعينهم ببطء، وكأنهم خرجوا من حلم طويل.

لم يعودوا في الفضاء، ولا على بساط من ضوء، ولا أمام كوكب مظلم.

كانوا يقفون في أرض غريبة... أرض تشبه عالمهم الأول، لكنها مغمورة بنور هادئ يشبه الفجر الأبدي.

الأشجار من حولهم تتلألأ أوراقها كنجوم صغيرة، وكل ورقة حين تهتز تُصدر خفقة دافئة كأنها قلب نابض.

مدّت ماريا يدها تلمس إحداها، فشعرت بحرارة خفيفة تنتقل إلى أصابعها، حتى سالت دمعة من عينها بلا وعي.

الأنهار تجري بلا صوت، مياهها كضوء سائل يعكس وجوههم متوهجة أكثر صفاءً مما عرفوا أنفسهم.

أما الهواء فكان باردًا منعشًا، يحمل رائحة تشبه مزيجًا من المطر الأول وزهرٍ لم يولد بعد.

السماء فوقهم لم تكن نهارًا ولا ليلًا، بل صفحة ممتدة من زرقة عميقة يسبح فيها شريط من النجوم، أقرب إليهم من أي وقت مضى.

قالت ليلى وهي تحدّق في دفترها:

– انظُروا... الصفحات امتلأت من جديد. لكنها ليست كلماتي وحدي... بل أصواتكم جميعًا.

يوسف رفع كمانه، فوجد أنه لم يعد مجرد خشب وأوتار.

عندما عزف، انطلقت النغمة كأنها تجسّدت في طائر من نور، حلق فوقهم ثم ذاب في السماء.

ضحك للحظة، ضحكة نقية سرت فيهم جميعًا.

ماريا ابتسمت لأول مرة منذ زمن طويل:

– أشعر أن أبي هنا... ليس في صورة واحدة، بل في كل ما يحيط بي.

أكيرا ركع على الأرض، لمس التراب المضيء، وأغمض عينيه:

– هذه الأرض لا تهتز... لأنها لم تُعطَ لي وحدي. إنها لنا جميعًا.

أما ديفيد، فقد أطلق صوته عاليًا، فارتد صداه من الجبال المضيئة كجوقة كاملة، كأن الكون نفسه يردّد بعده.

ابتسموا جميعًا، ثم اجتمعوا في حلقة صامتة، تبادلوا نظرات مليئة بالاطمئنان، وكأن الصمت نفسه صار لغة تكفيهم.

لكن آدم ظل صامتًا.

وقف عند حافة النهر، يحدّق في مياهه المتلألئة.

اقترب يوسف وسأله:

– ماذا ترى؟

أجاب بصوت منخفض، عيناه غارقتان في الضوء:

– أرى أننا عبرنا الامتحان... لكن النهاية ليست هنا.
هذا العالم ليس مكافأة، بل بداية جديدة.

ساد صمت بينهم، قبل أن يتردّد في السماء صوت بعيد، لا يشبه الأصوات السابقة، أكثر دفئًا وأقرب إلى الهمس:

«الوصل لم يكن غاية... بل طريق.
وكل طريق يفتح على طريق آخر.»

نظروا إلى الأفق، فإذا بطريق من نجوم يتشكل من جديد.
كان يمتد بعيدًا بلا نهاية، وكلما خطوا خطوة للأمام، تحركت النجوم لتعيد رسمه كأنه طريق حيّ، يرحّب بهم ويدعوهم.

الفصل الثاني والعشرون: الخاتمة

وقفوا جميعًا عند بداية الطريق الجديد، النجوم تتلألأ تحت أقدامهم كجمرات حيّة، تتحرك كلما خطوا لتعيد رسم المسار من جديد.

كان الأفق مفتوحًا بلا نهاية، كأنه يدعوهم إلى سفر لا يتوقف.

قالت ماريا، وعيناها لا تفارق الأفق:

– ربما حان وقت الراحة... بعد كل ما فقدناه وما عبرناه.

ليلى احتضنت دفترها وقالت:

– لكن الطريق هو ما يعطينا كلماتنا... إن توقفنا، ستصمت الصفحات.

يوسف مرّر أصابعه على أوتار كمانه، نغمة قصيرة ترددت في الهواء:

– الموسيقى لا تعيش إلا إذا واصلت الرحلة.

أكيرا وضع كفه على الأرض المضيئة، أغمض عينيه وهمس:

– هذه الأرض جميلة، لكني أشعر بحرارتها تقول لي: لا تبقَ. السير هو ما يجعلها تنبض.

ديفيد ابتسم وهو يستمع لصدى صوته يتردد بين الجبال:

– حتى الصدى هنا ينتظر خطواتنا. لو بقينا، سيبقى صمته ناقصًا.

نظروا جميعًا إلى آدم.

كان واقفًا بهدوء، يراقب الطريق والسماء معًا.

قال بنبرة غامضة، لكنها دافئة هذه المرة:

– العالم الذي أمامكم ليس نهاية، بل باب. أنتم من يقرر: تبقون هنا في سلام، أو تعبرون لتواجهوا ما بعد الوصل... حيث تبدأ الحكاية من جديد.

ساد بينهم صمت طويل.

ثم، دون أن يتفقوا بالكلمات، تحركت أقدامهم معًا.

خطوة أولى فوق الطريق النجمي... تبعتها أخرى.

شعروا بحرارة النجوم تحت أقدامهم، كأنها دماء جديدة تسري في عروقهم.

كل خطوة كانت تذيب الخوف، وتفتح في صدورهم اتساعًا يشبه الأفق.

ارتفعت النجوم من حولهم، التفت عليهم كأجنحة، حتى بدوا كطيف واحد يسير في السماء.

وفي تلك اللحظة، صمت الكون كله، كأن النجوم حبست أنفاسها.

ثم، حين اختفوا داخل الطريق، تردّد همس أخير في الفضاء:

«ما بين الخطوة والنجمة... يولد الأبد.»